

وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الرابعة عشرة

الهجرة إلى المدينة

أيها الإخوة المسلمين عباد الله، معاً على درب السيرة، نتحسس العبر والعظات التي تبني الإيمان في قلوبنا، وتزكي الخلق في نفوسنا، وتلهب الكفاح في أعمالنا، وتغرينا باتباع ديننا.

فالناس أخلاقاً متناقرون، لا تستقيم بهم السبل يوماً إلا شردت أياماً، ولا يتبعون الحق حيناً إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحياناً.

فيَّنَ نفحات العطر، وومضات الإشراق، ندرس سيرة عظيم الأخلاق محمد ﷺ، تتناول مقطوعة أخرى، ننتقي منها باقات عطرة من جهاده في سبيل الدعوة.

فبعد أن بايع ﷺ الأنصار في بيعي العقبة الأولى والثانية بدأت الهجرة العظيمة. هل تعلمون عباد الله ما معنى الهجرة؟ هل تعلمون عباد الله كيف كانت هذه الهجرة؟ إن هذه الهجرة ليست رحلة خلوية، ولا رحلة عمل، ولا نزهة، ولكن هذه الهجرة هي التضحية بالأموال وإهدار المصالح، وقد يهلك بعد ذلك في أول الطريق أو آخره.

ولم كل ذلك؟ لم هذه التضحية؟ ولم إهدار هذه الأموال والمصالح؟

ألا يسع النبي ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهما أن يعيشوا في سلام مع الكافرين المشركين، ولو تنازلوا عن دينهم حتى يأكلوا، ويشربوا، وينكحوا؟! ألا يسعهم ذلك؟!

ألا يسعهم أن يتذمروهم إخواناً على حساب كل دين، وكل أمر من رب العالمين؟! لا، لا؛ لأنهم مسلمون حقاً ولا حلول عندهم تستبيح كرامتهم.

أيها الإخوة المسلمين عباد الله، إن أسفار الصحراء توهن العمالقة الآمنين، فكيف يركب
مهرد الدم مستباح الحق؟! ما يحس هذه المتابع إلا من صلبي نارها.

وللعرب طاقة على احتمال هذا الشظف مع قلة الزاد والري، ولكنها إعانة الله، ولكنه
إيمان الذي حالت قلوبهم، يهاجرون وكأنهم يقولون:

من أجلك يا فجر الإسلام ... كم تخلو في الدرج الألام

بحلالك تصطحب الأحلام ... تتفتق بالوعي الأفهام

وتعانق قلعتك الأيام ... من أجلك يا فجر الإسلام

وبهذه الهجرة عباد الله تَّمَّ لرسولنا ﷺ سنة إخوانه من الأنبياء من قبله، فما من نبي منهم
إلا نبت به بلاد نشأته فهاجر عنها، من إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الله إلى عيسى كلمة
الله وروحه، وكلهم على عظيم درجاتهم ورفعه مقامهم أهينوا من عشائرهم؛ فصروا
ليكونوا مثلاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات، والبر، والصبر على المكاره، ما دام
ذلك في ذات الله.

فهيا بنا عباد الله مع هذه الهجرة، فإن فيها من العبر والعظات الكثير والكثير التي سوف
تجعلنا بإذن الله نفعل عكس ما كنا نفعل في الخطبة الماضية، كما ذكر الأحداث ثم نعلم
عليها، نأخذ مواطنها، وما تتعلم منها، ولكن مع الهجرة سوف نتنهج منهجاً عكسيًا،
وهو أننا نذكر العظات والفوائد، وهي بذاها سوف تقودنا إلى حدث الهجرة.
أولاً: التضحية، والفاء، والبذل لهذا الدين العظيم

إن قلت: الهجرة هي التضحية؛ فقد أنيت، فالهجرة ليست انتقال موظف من بلد
قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجده إلى أرض خصبة، إنما إكراه
رجل آمن في سربه، ممتد الجنود في مكانه على إهدار مصالحه، والتضحية بأمواله، والنجاة
بشخصه فحسب، وإشعاره وهو يصفي مرکره بأنه مستباح منهوب، وهذا لا يطيقه إلا

مؤمن، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كَبَّبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوهُمْ أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرُجُوهُمْ مِّنْ دِيْرِكُمْ﴾

﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَعْلُوا مَا يُوْعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْهِيَّةً﴾ [النساء: ٦٦]

أما الرجال الذين التقوا بالنبي ﷺ في مكة، فأخذوا يتركون كل شيء، وبها جرون زرافات ووحدانا، كل الذي أعطاهم إياه النبي ﷺ قوله: "فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ؟ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ"١، حتى كادت مكة تخلو من المهاجرين؛ لأن الله ﷺ جعل قداسة الدين والعقيدة فوق كل شيء، فلا قيمة للأرض، والوطن، والمال، والجاه إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالحرب والزوال.

فها هو صهيب الرومي خطيبه الذي ذهب ليهاجر، فقابلته قريش وقالوا له: "أَتَيْتَنا صُعْلُوكًا، فَكَثُرَ مَالُكَ عِنْدَنَا، وَبَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ ثُمَّ تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ، وَاللَّهُ لَا يَكُونُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ مَالِي أَتَخَلُّوْنَ سَبِيلِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: أُشَهِّدُكُمْ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُمْ مَالِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: رَبِحَ صَهِيبٌ، رَبِحَ صَهِيبٌ"٢، فذهب هو بدینه لرسول الله ﷺ، ولسان حاله يقول:

من أجلك يا فجر الإسلام ... كم تخلو في الدرج الآلام

نعم ربح صهيب خطيبه عندما صحي ووف

ربح صهيب خطيبه عندما انتصر على نفسه، وإلى رسول الله ﷺ غدا

ربح صهيب عندما رضي الله عنه وهدى

ومثال آخر: أول المهاجرين أبو سلمة خطيبه، أراد أن يهاجر ومعه أم سلمة خطيبها زوجه وابنه، قالـت أم سلمة خطيبها: "لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لَيْ بَعِيرَةً ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ

^١ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٨٩٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه بلفظ آخر (١٧٠٩).

^٢ أخرجه ابن حبان رحمه الله في صحيحه (٧٠٨٢)، وصححه ابن حجر العسقلاني رحمه الله في المطالب العالية (٢٨٧/٤).

خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجالبني المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام ترکك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا تترك أبننا عندها إذ نرعنوها من صاحبنا، قالت: فتجذبوابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وأطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وأنطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرق بي وبي زوجي وبيني^١، فلم يفك أبو سلمة جلعنـه ولم يوازن؛ إذ إنه لا مجال لذلك، إنه كفر وإيمان، إنه إنشاء دين، فهاجر، وكأنه يقول:

من أجلك يا فجر الإسلام ... كم تحلو في الدرج الآلام

وها هو رسولنا يعلمنا، وهو يصر على أن يدفع ثمن راحته التي سوف يهاجر بها، فذلك رمز التضحية، ولنلمح هذه التضحية أيضا في النشاط الذي كان يبذل عبد الله بن أبي بكر جلعنـها ، فقد كان يتحسس الأخبار حال هجرة النبي ﷺ، وكذلك أخته أسماء جلعنـها . نعم عباد الله، كلهم يضحون من أجل الدين، كلهم يضحون من أجل نصرة هذا الدين، فلو لا هذه التضحية والفاء لهذا الدين، ولو لا التضحية وبذل النفس التي كانت في الأوائل؛ ما وصل إلينا الدين غضاً صحيحاً، وما تعمنا بالعقيدة العالية والشريعة السمحاء، ولو لا بذلك أنت وتضحيتك أنت؛ ما تعم منْ بعده، فاعمل لدينك، واعمل بنفسك لتجد ما تقوله الله غالباً.

ثانياً: التوكيل على الله والأخذ بالأسباب

هذا الدرس عظيم، وهو أن الله على كل شيء قادر، ولكن لا بد أن تأخذ بالأسباب التي

^١ أورده ابن هشام رحمه الله في السيرة (٤٦٩/١).

سخرها لنا الله تعالى على حسب قدرتنا.

والذي يلاحظه القارئ، والسامع، والباحث من ثمار الهجرة: السرية التامة التي قام بها الرسول الكريم ﷺ، آخذًا بالأسباب لنجاح الهجرة، فتعالوا معى عباد الله لنرى ذلك بأنفسنا في رحلة هجرة الرسول ﷺ.

قبل كل شيء، لا بد وأن نعلم أن الحدث عظيم، بل والمشركون على وعي شديد بالهجرة وآثارها، ولهذا كانوا في غضب شديد؛ لأنهم يعلمون جيداً:

١. الخسارة الشديدة التي ستحل بهم لو ظهر دين محمد ﷺ؛ من فقدانهم مكانتهم، وبخسارتهم في الخمور، والأصنام، وكذلك الزنا والربا.

٢. أنهم يرون أن المهاجرين من إخوانهم وأبنائهم، وبالطبع في قلوبهم من حبهم الكبير.

٣. يعلمون أن الرسول ﷺ لو انتصر؛ لسوف يرجع إلى مكة ليقيم فيها حكم الإسلام، فالنبي ﷺ جلس في مكة ثلاثة عشر عاماً يبين أمراً هاماً، وهو: إن الحكم إلا لله.

٤. يعلمون قوة يثرب وسكانها:

• الأوس والخزرج لهما قوة ومنعة، ولو لا تفرقهم؛ لكانوا أقوى من قريش، وسوف يوحدهم الرسول ﷺ.

• كذلك العصبية القبلية، فهم يجدون هذه العصبية بينهم وبين بعضهم مع أنهم يعودون جميعاً إلى قريش، أما الأوس والخزرج فعلاوة على أنهم غير قريشين؛ فإن أصلهم من القحطانيين، وأصل قريش من العدنانيين، فسترداد العصبية أكثر.

٥. يعلمون التحصين الطبيعي للمدينة، وهي تقع على طريق قوافلهم إلى الشام، وأن بخسارتهم تُقدّر بربع مليون دينار ذهبي.

٦. خوفهم من اليهود؛ لأنهم كثيرو العدد والعدة، ومن المتوقع إسلامهم. ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ في غاية الخدر، ونرى ذلك جلياً في رحلة الهجرة، فقد كان أبو بكر الصديق خليفةً كثيراً ما يستأذنه في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: "لا تَعْجَلْ

لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا^١، فِي طَمْعِ أَبْوَ بَكْرٍ جَهْلَتْهُ أَنْ يَكُونَ مَصَاحِبًا لِلنَّبِيِّ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} فَاسْتَعْدَدَ أَبْوَ بَكْرٍ الصَّدِيقَ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} لِهَذِهِ الْمُحْرَةِ، "وَعَلَفَ رَاحِلَتِينِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمْرِ وَهُوَ الْخَبْطُ أَرْبَعَةً أَشْهُرٍ"^٢.

قَالَتْ عَائِشَةَ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}: "فَيَنِمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرٍ^٣ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَاتِلُ^{أَبِي بَكْرٍ}: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} مُتَقْنِعًا^٤ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيَنَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءُ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهُ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} لِأَبِي بَكْرٍ: أَخْرُجْ مَنْ عِنْدَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِنِّي قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتِي هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}: بِالشَّمْنِ، قَالَتْ عَائِشَةَ: فَجَهَزَنَا هُمَا أَحَثَ الْجَهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جَرَابِ فَقَطَعْتُ أَسْمَاءً بُنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نَطَاقِهَا فَرَبَطْتُ بِهِ عَلَى فَمِ الْجَرَابِ، فَبَذَلَكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النَّطَاقِينِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} وَأَبُو بَكْرٍ بَغَارَ فِي جَبَلِ ثُورٍ، فَكَمَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌ ثَقَفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحْرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرْيَشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهَ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبْرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرٌ بْنُ فَهْيَرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْهُ مِنْهُ غَنَمٍ، فَيُرِيْكُها عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ، فَيَسْتَأْذِنِ

^١ آخر جه الطراني ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} في المعجم الكبير (٤٦٢)، وقال الألباني ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} في فقه السيرة (١٦٠): بدون إسناد: لكن معناه فيما أخرجه البخاري ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}.

^٢ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٨٠٧).

^٣ أول الروايل وهو أشد ما يكون في حرارة النهار.

^٤ مغطٌ رأسه.

^٥ إشارة إلى عائشة وأصحابه ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}.

في رِسْلِ وَهُوَ لَبِنُ مِنْحَهُمَا وَرَضِيَّهُمَا حَتَّى يَعْقَبِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بَغْلَسُ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْلَّيَالِ الْثَلَاثِ، وَاسْتَأْجِرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيَا خَرِيَّاتاً، وَالْخَرِيَّتُ^١ الْمَاهِرُ بِالْهَدَايَةِ قَدْ غَمَسَ حِلْفَاً^٢ فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرْيَشِ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتِهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثُورَ بَعْدَ ثَلَاثَ لَيَالٍ بِرَاحِلَتِهِمَا صُبْحَ ثَلَاثَ، وَأَنْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ، قَالَ أَبْنُ شَهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيُّ وَهُوَ أَبْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ بْنِ جُعْشَمٍ، أَنَّ أَبَاهَا أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشَمٍ، يَقُولُ: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرْيَشِ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةً كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ قَتْلَهُ أَوْ أَسْرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِيِّ بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ، فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنَّهَا أَسْوَدَةً بِالسَّاحِلِ أَرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا اِنْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبَثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِيَّ أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِيِّيِّ، وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكْمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَاطَطْتُ بِزُرْجَهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَّهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِيِّيِّ، فَرَكِبْتُهَا فَرَعَعْتُهَا تُقْرَبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَشَرَتْ بِي فَرَسِيِّيِّ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ، فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَائِتِيِّ، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا: أَضْرُهُمْ أَمْ لَا؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِيِّيِّ وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقْرَبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِيِّيِّ فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا

^١ الخريت الماهر بالهدایة: هو مدرج في الخبر من كلام الزهرى.

^٢ غمس حلفاً: أي كان حليفاً وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيديهم في دم أو حلوق أو في أي شيء يكون فيه تلويث فيكون ذلك تأكيداً للحلف.

الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَّتْ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكُنْ تُخْرِجُ يَدِيهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لَأَثَرَ يَدِيهَا عَثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمَتْ بِالْأَزَلَامِ؛ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ، فَوَقَفُوا فَرَكِبٌ فَرَسِيٌّ حَتَّى جُنْحُنُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيَتُ مَا لَقِيَتُ مِنَ الْحَسْنِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهُرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرُوكُمْ أَخْبَارًا مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الرَّأْدَ وَالْمَنَاعَ؛ فَلَمْ يَرْزَآنِي، وَلَمْ يَسْأَلَنِي إِلَّا أَنْ قَالَ: أَخْفِ عَنَّا، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابًا أَمْنًا؛ فَأَمْرَ عَامِرَ بْنَ فَهْيَرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ¹.

فَانظروا عِبَادَ اللَّهِ إِلَى أَخْذِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَسْبَابِ، وَكَأْنَاهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَيَتَجَلِّي ذَلِكُ:

١. ذَهَابُهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فِي الظَّهِيرَةِ.

٢. السِّرِّيَّةُ التَّامَّةُ؛ فَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ بِشَيْءٍ إِلَّا الَّذِي لَهُ صَلَةٌ بِالْهِجْرَةِ، وَلَا يَعْلَمُ أَكْثَرُ مِنْ دُورَهُ.

٣. خَرُوجُهُ أَوْلَى اللَّيلِ قَبْلَ مُجِيءِ الْمُشْرِكِينَ، وَوُضُعَ عَلَيْهِ بَنْ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه لِيُعْطَلَ الْمُشْرِكِينَ بَعْضَ السَّاعَاتِ.

٤. يَذْهَبُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وَيَنْتَرِجُ مِنْ عَنْدِهِ مِنَ الْبَابِ الْخَلْفِيِّ؛ فَلَعِلَّ أَحَدَ الْمُشْرِكِينَ يَرَاقِبُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه.

٥. اِتِّجَاهُهُ إِلَى طَرِيقِ الْيَمَنِ جَنُوبًا أَوْلَى الْأَمْرِ مَسَافَةً خَمْسَةِ أَمْيَالٍ أَيْ قِرَابَةً ثَمَانِيَّةَ كِيلُو مِترٍ.

٦. يَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ الصَّعِبَ، وَهُوَ طَرِيقُ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ.

٧. الْإِسْتِعَانَةُ بِدَلِيلٍ خَرِيتَ، ذَكَرَهُ، يَتَوفَّرُ فِيهِ الصَّفَاتُ، وَهُوَ بُعِيدٌ عَنْ أَعْيْنِ الْمُشْرِكِينَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرِيقَطْ).

٨. مَكْوَثُهُ ثَلَاثَةَ لَيَالٍ فِي غَارٍ ثُورٍ حَتَّى يَهُدَّا الْمُشْرِكُونَ، وَهُوَ فِي مَكَانٍ صَعِبٍ فِي جَبَلٍ

¹ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٥٠).

٩. جعل الراحلتين مع عبد الله بن أريقط حتى لا يكشف حالمما.
١٠. عبد الله بن أبي بكر ينقل أخبار مكة.
١١. تنقل أسماء بنت أبي بكر الطعام والشراب، وهي حامل في آخر شهورها؛ فلا يتبعه إليها المشركون.

١٢. يرعى عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الغنم على آثارهما حتى لا يتبعهما المشركون.
١٣. طلبه عليه السلام من سراقة أن يخفى عنهم.
١٤. وأيضاً ما فعله أبو بكر الصديق من علف الناقة أشهر.

و شأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح، ومعها وأثناءها وبعدها يتوكّل على الله؛ لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله، وكما قلنا قبل ذلك عندما سأله رجل رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دابتة، فقال: "يا رسول الله، أعقلها واتوكلُّ، أو أطلقوها واتوكلُّ؟ قال: أعقلها واتوكلُّ"^١، فإذا استفرغ المرء جهده في أداء واجبه، فأخفق بعد ذلك؛ فالله لا يلومه على هزيمة بُلِيَّ بها، وقلما يحدث ذلك إلا عن قدر يعذر المرء فيه. وكثيراً ما يرتب المرء مقدمات النصر ترتيباً حسناً، ثم يحيىء عنون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الشمار، كالسفينة التي تشق عباب الماء، بما ربان ماهر، فإذا بالتيار يساعدها، والرياح تهب إلى وجهتها، فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهي إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر.

ولا بد أن نلاحظ شيئاً علمنا إياه رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المسألة، مسألة الأخذ بالأسباب، نلاحظ أنه ليس سبب قيامه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الحيلة والخدع والأخذ بالأسباب هو خوف في

^١ أخرجه الترمذى رحمة الله في سننه (٢٥١٧)، وحسنه الألبانى رحمة الله في صحيح الترمذى (٢٥١٧).

نفسه، أو شك في إمكان وقوعه في قضية المشركون قبل وصوله المدينة، والدليل على ما نقول: أنه عليه عليه السلام بعد ما استنفذ الأخذ بالأسباب المادية كلها، وتحلى المشركون حول الغار الذي يختبئ فيه وهو وصاحبه، كان قلبه مطمئناً؛ فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: "فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ أَنْ بَعْضَهُمْ طَأَطَّا بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ: اسْكُنْ يَأْبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"^١.

ولقد كان مقتضى اعتماده على كل تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع في تلك الحال، ولكن لم يحدث ذلك؛ فعلمنا أن كل ما فعله عليه السلام من هذه الاحتياطات إنما هو وظيفة تشريعية قام بها، فلما انتهى من أدائها عاد قلبه مرتبطا بالله تعالى، معتمدا على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمين أن الاعتماد إنما يكون على الله، ولكن مع احترام هذه الأسباب التي قدّرها الله في الدنيا أن تكون أسباباً.

فعلمنا عباد الله أن النبي صلوات الله عليه وسلم لما استفرغ وسعه في الأخذ بالأسباب، وكان قلبه متعلقا بربه جل جلاله؛ أعاذه الله، وأعمى عنه الأ بصار حين الخروج، ولم يكن ذلك محابة من القدر لقوم فرطوا في الأسباب، بل هو مكافأة القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها.

والناس انقسموا مع التوكيل على الله والأخذ بالأسباب إلى أربعة أقسام:

- **قسم توكلوا على الله على زعمهم، ولم يأخذوا بالأسباب:** كحالنا نحن عباد الله، فمع كل ما يفعله فيما الكافرون، ترى الناس في رمضان وغيره قد رفعوا الأيدي ليدعوا الله بكائين قاتلين، يقولون: اللهم عليك بالكافرين، ثم نحن لا نأخذ بالأسباب، فنحن نناقض أنفسنا، إذ إننا إذا دعونا الله بالشفاء لم ننس أن نذهب للطبيب وأنأخذ العلاج، وإذا سألنا الله الغنوة؛ نعمل بجد حتى يغنينا الله، فلم عندما نطلب من الله النصر لا نأخذ

^١ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٢٢)، ورواه مسلم رحمه الله بلفظ قريب في صحيحه (٢٣٨١).

بأسبابه؟! فقد يَسِّن لنا الله تعالى قائلًا: ﴿وَأَعْدُوا لَهُم مَا أَسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦]، ما استطعتم حتى لو كانت القوة التي أعددناها على قدر استطاعتنا أقل من قوئكم، هنا يتجلّى قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فَتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتَّةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الْأَصْدِيرِ﴾ [آل عمران: ٢٤٩] ، فالله سبحانه وتعالى يطلب منا فقط أن نأخذ بالأسباب، ثم بعد ذلك يوفقنا، يوفق قوماً أقاموا شرعيه واحترموا الأسباب التي خلقها وأمر بها سبحانه، أما الدعاء والتوكل على الله؛ فيكون قبل الأخذ بالأسباب ومعه وبعده، فإذا حدث ما لم يكن في الحسنان أو ما لا طاقة لنا به؛ فالدعاء والتوفيق يربينا الله عظيم آياته، أما الدعاء فقط؛ فلا يصلح، وهذا نحن ندعوه فقط وما زال الكافرون يركبون على ظهورنا، ويقودوننا قيادة البهائم، والذل مخيم، وهتك الأعراض مستمر، والظلم والسيطرة متزايدان.

وانظر إلى قدرة الله وحكمته ولطفه، فمع أمره بالأخذ بالأسباب؛ يَسِّن لك أنه على كل شيء قدير، وأن الأمر ليس بجهدك أنت، ولا حرصك، ولا ذكائك، ولا أسبابك؛ بل الأمر كله لله.

فرسولنا ﷺ أخذ بالأسباب في مكة؛ ففتحت له المدينة قبل أن يهاجر إليها، أخذ الأسباب قبل أن يدخل الغار؛ فجاه الله داخل الغار، أخذ بالأسباب وترك علياً عليه السلام في بيته؛ فأعمى الله أبصار الكفار وهو خارج من بيته، أخذ بالأسباب قبل أن يشق طريقه في الهجرة؛ فبدل الله حال سرقة من قاتل إلى حارس.

ومن العجيب أن تجد كثيراً من الناس يأخذون بالأسباب في مواطن، ويتركون الأخذ بالأسباب في مواطن أخرى على حسب الموى والمزاج.

- وقسم: يأخذون بالأسباب فقط.

- وقسم: وهو الصحيح وهو ما عليه الرسول ﷺ والصحاب رضي الله عنه، أخذوا بالأسباب

وتوكلوا على رب الأسباب سبحانه وتعالى.
هكذا عباد الله علينا أن نتبعه ﷺ، فإن في اتباعه النجاة.

﴿وَلَن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

اللهم صل وسلم وزد وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين